

الأطر اللسانية للسرديات

د. نجاة وسواس / د. فتيحة بلمبروك

المركز الجامعي تيسمسيلت/ جامعة سيدي بلعباس

مثّلت اللسانيات بفروعها المختلفة دعامة أساسية في مسيرة السرديات الحديثة وبخاصة في تبين أطراف الخطاب السردى ووضعياته ومحافله التلفظية، وهذا عائد أساسا إلى ذلك التماثل بين الكلام والسرد بوصفهما أداء يقوم على كفاءة واحدة هي اللغة، إذ إن الكلام من حيث هو رسالة يوجهها شخص إلى شخص آخر يمثّله في هذا السرد، فهو الآخر خطاب يوجهه سارد إلى مسرود له/مؤلف إلى قارئ، فكلاهما يفترض متكهما وسامعا كان للأول نية التأثير في الثاني على حد تعبير "إميل بنفنست"، وبهذا يوضع كلاهما في منحى تواصلية له خواصه وآليات اشتغاله ووضعياته التواصلية الخاصة به كونهما ضربين من التلفظ مختلفين.

الكلمات المفتاحية: السرد؛ الكلام؛ البنيوية؛ اللسانيات؛ التواصل.

إنّ الخروج عن المقاربة الفنية إلى المقاربة اللسانية أو البنيوية للنصوص عامة والمحكيات خاصة كان من خلال دعوة دي سوسير إلى الدراسة المحايدة للغة وشكلنة الظاهرة اللغوية، من خلال جملة من الثنائيات يتركز عليها هذا النوع من الدراسة: اللغة والكلام، الدال والمدلول، الآنية والتزامنية، العلاقات النظامية والإستبدالية، ودراستها -اللغة- على أنها مجموعة من العلامات المنتظمة والمحيلة إلى معنى ما، فأوضحت الدراسة من خلالها وصفا للغة على أنها نظام اجتماعي تتضح طبيعته من خلال التواضع والاتفاق، فهي عقد بين أفراد المجتمع متفق عليه¹.

أما على المستوى السردى فتبدو الدراسة المحايدة أبرز من خلال التأسيس لنظرية سردية تتجاوز كل مبادئ النقد الكلاسيكي، ويبدو أن النظرية السردية قامت هي الأخرى على ثنائية -على غرار الدراسة اللغوية- المتن والمبنى الحكائيين، أي بين المحكي بوصفه قصة أو مجموع الأحداث التي تشكل المادة الحكائية وطريقة عرضها لغويا، وهو ما نادت به الشكلانية الروسية مع أبرز منظريها توماشيفكي و بروب .

- الإطار اللساني للتواصل السردى :

من أولى الدراسات المقدمة في حقل التواصل اللغوي دراسة " رومان جاكوبسون (R.Jakobson) التي مثلت النموذج الأبسط والأكثر شهرة وتداولاً، الذي كان قاعدة انطلقت منها معظم النماذج المقدمة فيما بعد، إذ ركز جاكوبسون فيه على العناصر المكونة للتواصل اللفظي والوظائف التي ينشئها كل عنصر، إذ إن كل سيروية تواصلية تبدأ

من المرسل الذي يوجه رسالة إلى مرسل إليه، والرسالة تقتضي سياقاً معيناً تبعث فيه (وهو ما يسمى كذلك .. المرجع)، كما تقتضي شفرة مشتركة ولو بشكل جزئي بين المرسل والمرسل إليه أو بتعبير آخر بين المشفر ومفكك شفرة الرسالة، وأخيراً الرسالة تقتضي كذلك اتصالاً فيزيائياً وتواصلاً نفسياً يسمح بتأكيد التواصل وصيانتها، وقد اختصر جاكوبسون هذه العوامل في المخطط التالي² :

سياق (contexte)

مرسل (émetteur) رسالة (message) مرسل إليه (récepteur)

اتصال (contact)

شفرة (code)

يرى جاكوبسون أن كل واحد من هذه الفواعل يولد وظيفة معينة، فيقر بوجود ست وظائف أولها هي المرجعية وتتمركز حول المرجع، والوظيفة التعبيرية التي تتمحور حول المرسل وهي تسعى إلى إعطاء انطباع بانفعال معين صادقاً كان أم كاذباً، أما الوظيفة الإفهامية فهي تركز على المرسل إليه بواسطة تأخذ الرسالة قيمتها التداولية كما يتجلى ذلك مثلاً في النداء أو الأمر أو غير ذلك .

أما الوظيفة الانتباهية فتتعلق بقناة التواصل، تهدف إلى إقامة التواصل وتثبيتته والحفاظ عليه والتأكد من اشتغال دورة الكلام، أما الوظيفة الميتالسانية فتتمحور حول السنن وتبحث فيما إذا كان المرسل والمرسل إليه يستعملان السنن ذاته، وبالتركيز على الرسالة تبرز الوظيفة الشعرية، ويضرب جاكوبسون هنا مثال الإجراءات الإيقاعية في أي نص³ .

إن معظم المحاولات التي قُدمت فيما بعد انطلقت من هذا النموذج، إذ نجد مثلاً "روبول" (Rebool) لا يبتعد كثيراً في تحديده لوظائف اللغة عن جاكوبسون، إذ إنه قدم هذا النموذج وحلله وبين إلى أي مدى يمكن أن تصلح التسميات المقترحة فيه، لذلك لم يتجاوز نقده لهذا النموذج إطار التسميات، فهو مثلاً يرى أن الوظيفة المرجعية بمفهوم جاكوبسون يناسبها أكثر تسمية وظيفة التسمية نظراً وجود أساليب لا تحيل إلى مرجع معين مثل الأساليب الإنشائية، يرى كذلك أن الوظيفة الانفعالية يناسبها مصطلح التعبيرية - وقد كان جاكوبسون قد أعطى هذه الوظيفة التسميتين معاً - كون التعبير عن الذات لا يكون الانفعال دائماً سبباً له⁴ .

وهناك من يختزل فواعل التواصل في ثلاث تتولد عنها ثلاث وظائف يمكن صياغتها في:

- 1 - عنصر خاص بالمسؤولين عن إنجاز الرسالة واستقبالها المرسل والمرسل إليه : وظائف تداولية .
- 2 - عنصر خاص بالمعرفة ويشمل السياق : وظائف معرفية مرجعية .
- 3 - عنصر خاص بالرسالة وفعالية القناة وصلاحيّة الشفرة : وظائف صورية⁵ .

إن أهم انتقاد وجه إلى المخطط الجاكوبسوني مس الشفرة على وجه التحديد، إذ ترى مثلاً " كاترين أوريشيوني " (k.k Orecchioni) أن هذا المخطط صاغ الشفرة في المفرد معلقة في مجال بين المرسل والمرسل إليه وأن هذا ولّد مشكلتين الأولى هي مشكلة انسجام الشفرة (homogénéité du code) إذ إنه من المستحيل أن يتقاسم المرسل والمرسل إليه الشفرة ذاتها أو أن يحملا الكفاءة اللغوية نفسها رغم اشتراكهما اللغوي وهذا مخالف لما قاله جاكوبسون في أن أطراف التخاطب يحاولان اكتشاف نحو مشترك سواء من أجل الإرضاء أو الفهم، ولذلك فالمملكية الخاصة في مجال اللغة غير موجودة فكل شيء مشترك بالنسبة إليه وهذا لا يحدث دائما بالنسبة إليها ، أما المشكلة الثانية فهي أن القدرة الظنية للذات لا تشغل بشكل متكافئ بين المرسل في عملية إنتاج الرسالة والمرسل إليه في عملية تأويلها — إذ أن الذات نفسها تعمل على توظيف هذه الكفاءة حسب الوضع التلفظي — فالأولى مشتملة في الثانية لأن كفاءتنا في التشفير قاصرة عن كفاءتنا في حل الشفرة⁶.

وبهذا تنفي كاترين ذلك الجانب المشترك بين المرسل والمرسل إليه سواء في الشفرة نفسها أو في الكفاءات اللغوية — وتضيف هي الفكرية والثقافية والنفسية — لديهما في تشفير الرسالة وتأويلها⁷.

تعرض النموذج الجاكوبسوني أيضا إلى انتقادات أخرى غير هذا ، إذ يرى البعض أن من سلبات هذا النموذج عزل أطرافه كل على حده وكأن هذه الرسالة غرض ملموس ينتقل من مستوى إلى مستوى آخر دون أن يتدخل أي طارئ في مسيرة التواصل، وكأن هذه العملية عملية آلية تجري بين طرفيه، إن هذين الطرفين ليس لهما المسافة نفسها تجاه الشيء "موضوع الرسالة" بل إنهما طرفان مقحمان في حركة مختلفة باعتبار أن عمل المرسل ينطلق من دلالة معينة متميزة ، في حين أن عمل المرسل إليه هو التمييز بين المفترض والموضوع وتقفي نوايا سياق المتكلم وتوضيح الغامض وتحليل المفاهيم التي يمكن أن تكون قد غابت عن المتكلم ، ولهذا فإن البساطة التي تمتع بها النموذج الجاكوبسوني أدت إلى إبطاله في حالات كثيرة⁸.

من أهم الإنتقادات التي تعرض لها كذلك هذا المخطط هو انتقاد "بيار كونتر" (Pierre Kuent) الذي رأى أن هذا النموذج يفترض منزلة خاصة يتمتع بها باث لا يعدو أن يكون تنوعا للذات المبدعة أو المؤلف حسب الاستعمال التقليدي ، في حين أنه يهمل المرسل إليه ، و أن هذه الخطوة بالباث تعكس الاتجاه الذي يجب أن يقرأ منه المخطط أي انطلاقا من مرسل عبر سنن يوجد لاحقا ، إلى مرسل إليه يتلقى الرسالة، فالعلاقة المفترضة هنا هي التي تبتدئ من مؤلف وتنتهي إلى قارئ وليس تلك العلاقة الجدلية التي تنشأ فواعلها بواسطة عمل اللغة⁹.

كما يرى "جون ميشال آدم" (Jean .M .Adam) أن جاكوبسون أقام نموذجه التخاطبي على تصور ديكارتي، إذ إنه يقصي السياق الاجتماعي والثقافي، كما أنه يلغي ظواهر التناص وإمكانية وجود دلالات أخرى تتعدى معنى الرسالة الذي يتسم بالوضوح والثبات، وبما أن اللغة ليست مجرد أداة لتبليغ رسالة ما يقترح جون ميشال تجاوز النموذج الجاكوبسوني إلى التداولية (Pragmatique) التي تكاد تكون في نظره شاملة لجميع الظواهر الخارجة عن اللغة (Extra linguistique) بداية من السياق المرجعي إلى المعطيات الاجتماعية الثقافية على غرار ما قدمه النقد التقليدي¹⁰.

إن التداولية في تصور أبرز منظريها "شارل موريس" (Charl Morris) وفي تصور بعض المناطق، هي دراسة العلاقات الموجودة بين العلامات و مستعملها ومؤولها¹¹، وقد عمد الدارسون إلى هذا المنهج للبحث عن رؤى جديدة بعد قصور اللسانيات الشكلية وإهمالها للغة في الاستعمال التواصلية بين البشر، وقد اكتسبت التداولية أكثر من مفهوم وذلك بالاستناد إلى مجال الدراسة، حيث إذا كانت الدراسة تقتصر على دراسة المعنى في سياق التواصل – وليس المعنى الدلالي – ما يسمح بتسمية هذا المعنى بمعنى المتكلم – فتعرف تبعاً لهذا على أنها دراسة المعنى التواصلية أو معنى المرسل في إمكانية إفهامه للمرسل إليه بدرجة تتجاوز ما قاله، وتعرف كذلك استناداً إلى مرجعيات الألفاظ ودورها في الخطاب وعلى وجه الخصوص الإشارات (deitiques) إضافة إلى طرفي هذا الخطاب ودورها في تشكيله وانجازه، وقد تعرف في شكل ثالث بأخذ المرسل بعين الاعتبار بأنها كيفية إدراك المعايير والقوانين التي توجهه عند إنتاج خطاب ما في ضوء السياق الذي يضمن إمكانية المرسل إليه على تأويل الرسالة وتحقيق مقصد المرسل لتأخذ التداولية من هذه المنظورات المختلفة مفهوماً عاماً يتمثل في : دراسة التواصل اللغوي في سياقاته المختلفة¹²، وهذا هو ما نادى به جون ميشال آدم وما أخذه على جاكوبسون في أهمية السياق في تحديد بنية الخطاب ودلالته ومرجعياته وعلاماته.

من هنا أمكن القول إن الدرس اللغوي التداولي يدرس المنجزات اللغوية في تواصليتها كون اللغة لا تؤدي وظائفها – التي لا يمكن أن تكون إطلاقاً مجردة أو معزولة عن سياق التواصل – إلا في إطارها التواصلية، وبما أن الكلام أو الإنجاز اللغوي يأخذ بعداً اجتماعياً فلا بد من معرفة مدى تأثير هذه السياقات الاجتماعية على هذا المنجز اللغوي، وقد اهتمت التداولية بمعظم جوانب الخطاب التي اتخذت ثلاث مسارات لا يمكن أن تحدد إلا في الخطاب المستعمل أي في تداوليتها وهي¹³ :

1 – أفعال الكلام.

2 – القصد أو المعنى التداولي.

3 – الإشارات.

وبهذا يمكن القول إنه مع التداولية استعاد كل من السياق دوره في تشكيل مرجعيات الخطاب والمرسل إليه منزلته التي أهملها بشكل ملحوظ المخطط الجاكوبسوني، كون التلفظ نشاط لغوي بقدر ما هو نتاج من يتكلم هو من ناحية أخرى نتاج من يقرأ أو ينصت .

إن العناية التي أولتها اللسانيات التواصلية و التداولية بطرفي أي خطاب لغوي كانت محط اهتمام المختصين بالسرد في البحث عن الأعوان السردية التي تتدخل في نشأة أي عمل سردي، إذ إن العمل السردي من حيث هو قناة تواصلية تجسد عقداً يربطه الطرف المرسل بطرف آخر متلقي غاية الأول إيصال قصة ما إلى الثاني .

فالسرد تبعاً لهذا رهان التواصل (l'enjeu de communication) على حد تعبير بارت، يحتفظ هذا السرد بشكل عام بوظيفتين من وظائف اللغة يشكل مجموعهما الوظيفة الجمالية لهذا السرد، هما وظيفة التواصل والوظيفة التعبيرية¹⁴.

إن العمل السردى رسالة يتداولها فاعلان هما المرسل والمرسل إليه يتجلى تواصلهما في ثلاث مستويات تبعاً لطبيعة الطرفين المائلين في كل مستوى حيث يمكن وضعها في الشكل الآتي¹⁵:

المؤلف الحقيقي	المؤلف المفترض	سارد	قصة	مسرود له	قارئ مفترض	القارئ
			حقيقي	الخطاب		
			القصة			
			النص السردى			

يمثل المستوى الثالث بمكوناته الثلاث: السارد، المسرد، المسرود له المستوى الذي يحيل إليه كل خطاب تخيلي، فالسارد هو الذي يسرد الحكاية، والسرد هو عمل هذا السارد والطريقة التي يعرض بها حكايته، أما المسرود له فهو متلقي السرد وغياب أي عنصر من هذه العناصر يحدث إخلالاً في العملية التواصلية، بل إن قيمة أي عنصر لا تتحدد إلا في علاقته بالعنصرين الآخرين¹⁶.

ترى آن بانفيلد (Anne Benvild) أن المحاولات الحديثة التي حاولت صياغة نظرية للأساليب السردية تلمس النحو كما لو كان فرعاً من نظرية التواصل، ولهذا فإن العلاقة بين المؤلف والقارئ تتضمن كل البنى التي تقوم على العلاقة بين المرسل والمرسل إليه، وأن أي محكي هو الآخر نتاج ذلك التواصل القائم على ذلك النموذج اللغوي الذي يفترض هو كذلك صورة للسارد وأخرى للمسرد له¹⁷.

إن هذا التواصل بين مانح السرد ومتلقيه فكرة بديهية بالنسبة لبارت، إلا أن النقد لم يولها الاهتمام الكافي وبخاصة المسرود له، إذا استثنينا السارد في أنه تلقى بعض الاهتمام، ولعل هذا عائد بالأساس إلى أن علامات السارد أوضح في النص مما هي عليه علامات المتلقي، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى تجدر الإشارة إلى أن السارد والمسرد له مختلفان تمام الاختلاف عن المؤلف والقارئ كونهما شخصين واقعيين في حين أن الأولين تخيليان ومن وضع المؤلف، وفي هذا يقول بارت "إن الذي يتكلم ليس هو من يكتب (في الحياة) والذي يكتب غير الذي هو في السرد"¹⁸.

وعلى الرغم من ذلك التعالق الذي يجده أي باحث في مجال التواصل السردي بين السارد والمؤلف والمسرد له والقارئ، إلا أن السرديات فصلت في هذه المسائل، فأصبح معنى " المرسل " اللساني يتضمن من الناحية السردية أكثر من واحد ، كذلك الأمر بالنسبة للمرسل إليه، فعلى المستوى الحقيقي -وكما توضح ترسيمة "عبد الله إبراهيم" - ينطلق التواصل من المؤلف أي الكاتب الحقيقي للعمل السردى الذي يتجلى في أشكال عدة: رواية، أقصوصة، مسرحية، ملحمة .. ، ليصل إلى الطرف الآخر المتمثل في القارئ الحقيقي الذي لا يُشترط أن يكون في المكان و الزمان نفسيهما اللذين يحى فيهما المؤلف، فمازلنا نقرأ بخلاء الجاحظ ورسالة الغفران .

كذلك الأمر بالنسبة للمستوى الضمني، إذ يقابل المؤلف الضمني قارئ ضمني لا ينتمي لا إلى النص ولا إلى خارجه بل هو حلقة وسيطة بينهما .

في حين أن التواصل بين السارد والمسرد له يتم خطائيا، يرسل السارد قصة ليتلقاها الثاني، وطبيعة هذا التواصل تخيلية، لهذا لا بد من التفريق بين المستويات الثلاث حتى تتجلى صورة السارد والمسرد له منفصلة عن المستويين الآخرين لا يتعدى البحث فيهما حدود النص .

2- نظرية التلفظ والسرديات :

إن النقلة النوعية التي أحدثتها اللسانيات في مقاربتها للنصوص بالتحول من الجملة إلى الخطاب كان لها كذلك الأثر البالغ في الدراسات السردية ودراسة المحكيات كونها خطابات، فبعدما كانت الجملة أكبر وحدة تستطيع اللسانيات وصفها أتى هاريس ساعيا إلى توسيع نطاق الدراسة اللغوية وإخراجها من حدود الوصف الجملي إلى الخطاب . وقد كانت بداية البحث عن نحو الخطاب كبديل لنحو الجملة من الستينيات، حيث حاول اللسانيون تجاوز المقولة التي تعد الجملة الوحدة الأساسية في علم اللغة القابلة للدراسة اللغوية حيث يشير بلومفيلد إلى ماهية الجملة أنها "شكل لغوي مستقل لا يدخل عن طريق أي تركيب نحوي في شكل لغوي أكبر منه"¹⁹، وفي هذا إشارة إلى حصر الدراسة اللغوية في الجملة، لذلك سعى المنهج اللساني مع ظهوره إلى رصد وحدات الجملة وتحديد العلاقات الرابطة بينها، ثم تعدى الأمر إلى النظر إلى الجملة وعد الجملة السابقة لها سياقاً أصغر يرتبط به التركيب النحوي للجملة السابقة، وبهذا يتوسع تحليل الجملة المفردة في الواقع إلى تحليل أزواج الجمل، وبذلك تم التوصل إلى مستوى أعلى من الوصف الجملي/النصي مع القواعد التحويلية والتوليدية .

وقد عبر بعض اللغويين عن ضرورة توسع مجال علم اللغة ليمتد إلى علم اللغة النصي، وعبر هاريس (Z.Harris) عن هذا التحول بقوله "اللغة لا تأتي في شكل كلمات أو جمل مفردة بل في نص متماسك بدء من القول بالكلمة الواحدة إلى العمل بالمجلدات العشر، بدء من المونولوج وانتهاء بمناظرة جماعية مطورة"²⁰، ولذلك يجب تحليل الجمل دائما في سياق النصوص، ونقل هاريس ما يتصل عنده بتحليل الجملة تحليلا بنوي التقطيع والتوزيع إلى

المستوى الجديد "النص" إذ إن التوزيع الذي تلقتي من خلاله العناصر النصية يعبر عن نظام معين يقود إلى بنية النص²¹، وقد أدخل هاريس مفهوم التحولات -الذي وجد فيما بعد لدى تشومسكي- التي تؤدي إلى معادلات نصية "equivalances textuelles" أو ما يسمى بالتوازي .

بهذا يمكن القول إن ما قدمه هاريس حول النص يقود إلى ما سماه إميل بنفنت (E.Benveniste) بالملفوظ من خلال اعتباره متتالية من الجمل التي تربط بينها علاقات، ويقدم بنفنت الفكرة نفسها التي مفادها التحول عن الجملة إلى الخطاب عادة الخطاب "ملفوظا يفترض متكلم ومستمعا كان للأول نية التأثير في الثاني"²²، وبهذا يضيف بنفنت بعدا آخر للخطاب-إضافة إلى لغويته- هو البعد التواصلية الذي يفترض وجود طرف ثان يتلقى ملفوظ الطرف الأول .

ويصر بنفنت على ذاتية الاستعمال اللغوي في الخطابات من خلال إحداثه لمصطلح "التلفظ" الذي يعني عملية إنتاج الملفوظ الذي يعد المنجز اللغوي الذي أنجزته الذات، ويرى بنفنت أن ما ينبغي دراسته ليس الملفوظ وإنما عملية التلفظ في حد ذاتها²³، لهذا نجده في عملية التلفظ يفصل -في دراسته "علاقات الزمن في الفعل الفرنسي"*- بين التلفظ القصصي والتلفظ الخطابي وهذا التمييز كان من الدعامات الأساسية في استقصاء من يتكلم سرديا أو البحث في الأصوات السردية .

وقبل هذا كان له الامتياز في الفصل بين زمن القصة وزمن الخطاب، فبتمييزه بين القصة و الخطاب ميز بين زمنيهما، حيث رأى أن التلفظ القصصي يعتمد على الماضي ودون أي تدخل من ذات التلفظ أو السارد وكأن الأحداث تحكي نفسها بنفسها بعيدا عنه، على عكس التلفظ الخطابي الذي يعتمد على المتكلم بوصفه طرفا في عملية تلفظية تواصلية طرفها الآخر هو المستمع، مما يعني أن الخطاب كنظام للتلفظ يتضمن ملفوظا سواء أكان شفويا أم كتابيا يحيل إلى لحظة التلفظ بالاستعانة بالوصلات (deitiques): الزمن الحاضر الضمائر الشخصية: أنا أنت، الظروف: هنا الآن...²⁴، وبشكل عام كل عنصر لساني يحيل إلى تلك اللحظة، في حين أن التلفظ القصصي لا يستند إلى تلك اللحظة لذلك تبدو الأحداث وكأنها تحكي نفسها نظرا لأن التلفظ لا يترك أثرا لا على مستوى الشكل ولا على مستوى الضمير أو باقي الوصلات، وعلى هذا الأساس تم الفصل بين المتكلم/ المتكلمين في النص وبين المؤلف الذي لطالما عده النقد التقليدي جزءا لا يتجزأ من هذا النص .

- الحوارية و السرد :

يقوم الخطاب السردى والخطابات الأدبية عامة على اللغة التي تعتبر نظاما من القوانين التي تحدد الإنجاز الفعلي للكلام، وتتميز الخطابات والسردية على وجه الخصوص بتعدد مستوياتها وفقا للصوت الحامل لهذا الخطاب، فالنص السردى نص لا يمكن أن يستأثر به صوت واحد، إذ عادة ما تتعدد أصواته فتتعدد معها اللغة وفقا للمستوى الثقافي والاجتماعي لكل شخصية موجودة داخل المحكي .

والحوارية أو التفاعل اللغوي واحدة من المفاهيم التي ساهمت في مقارنة الخطاب الروائي، بل حتى في إستحداث تقنية روائية جديدة ، فبعدها كان النص يقوم على الصوت والرأي الواحد وهما للمؤلف، جاءت الحوارية لتخرج المحكي

من هذا النسق إلى نسق الصوت المتعدد، وتعلم معها المؤلف كيف يفسح المجال لأصوات أخرى تتحدث في النص وتتناور بل وتسرد، فغدت الرواية - والنص السردي عموماً - تبعاً لهذا مجالا لتشكلات لغوية ناتجة عن التعدد الصوتي (polyphonie) الذي تتعدد معه الآراء والمواقف الأيديولوجية وأشكال الوعي.²⁵

والمؤلف وهو يخرج من كون الشخصية موضوع وعيه إلى كونها وعياً مستقلاً يقوم بالتعاطي والتفاعل مع بقية الشخصيات، هو في حد ذاته مبدأ من مبادئ الحواية، وهو ما لاحظته باختين (M.Bakhtine) في دراسته لأعمال دوستويفسكي الروائية، التي تتعدد فيها الأصوات، التي تقود دوماً إلى الحوارات التي عادة ما تتوزع في المحكيات²⁶، وكان باختين قد أشار إلى هذا الأمر حينما عد تنوع الخطابات مظهراً من مظاهر الحوارية الروائية التي تتجلى من خلال التعدد اللساني في النص الواحد، إذ إن لكل صوت لغته الخاصة سواء كانت فصيحة أم عامية، كما تتجلى كذلك من خلال استقلالية فكرها عن فكر المؤلف وتفرداً بخلفياتها الخاصة، ما يجعل مستويات النص اللغوية تتعدد ساعية إلى خلق نوع من التناغم والتجانس وحتى في أشد حالاتها تناقضاً واختلافاً.²⁷

إن عملية السرد تفترض بالضرورة وجود صوت سارد يتولى هذه المهمة فهو باني عالمه الحكائي لينتج محكياً خاصاً به، يتحقق هذا الخطاب انطلاقاً من اللغة وعبرها، يسعى بواسطتها السارد إلى التعبير عن كل ما يشمله ذلك العالم وما يحيط به وكل ما يراه وما يختلجه، لذلك إن هذه اللغة تختلف من صوت إلى آخر بل إن لكل صوت معجماً خاصاً به، له علاقة وطيدة بشخصيته و البيئية التي ينتمي إليها والثقافة التي استوعبها وحتى الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها، مما يؤدي إلى تعدد المستويات اللغوية ليس فقط من نص إلى آخر بل حتى داخل النص الواحد الذي يتعدد فيه السارد.

وهكذا فإن استخدام ألفاظ وتراكيب وصور من طرف السارد يأخذ قيمة خاصة به داخل خطابه، قد تُفقد إذا استعملها غيره باعتبار أن هذه القيمة مرتبطة بخصوصية السارد وطريقته في الحكى، التي تجعل لغته تبتعد عن الفصيحة لتقترب من الشعبية أو العكس فتسمو إلى الفصيح، ولعل هذا ما قد يمثل استجابة جمالية لمقتضيات النص، وبقدر ما هو استجابة جمالية لمقتضيات النص قد يكون كذلك استجابة لمقتضيات التلقي، إذ لا يمكن لأي متلق أن يتقبل كون السارد ذا مستوى معين أو طبقة معينة بينما تكون لغته في مستوى آخر مختلف عن مستواه .

يجب القول أخيراً إن اللسانيات كانت الجسر الذي مرت عبره مختلف النظريات الحداثيّة والمرجعية الأساسية التي استندت إليها في تحليلاتها، وهذا بعدما شكلت الظاهرة اللغوية ودعت إلى قراءتها من خلال عملية الوصف واتخاذها موضوع البحث .

والسرديات البنوية تحديداً بقدر ما استفادت من الدراسات الشكلانية الروسية استفادت من اللسانيات، في مسعاها إلى إقامة نموذج تحليلي للمحكيات في إطارها الشكلي الذي يفضي إلى البنيات الداخلية لها .

وإذا كانت السرديات تصنف بأنها العلم الذي يبحث في سردية وبنية الخطاب السردية بوصفه ملفوظا، أي البحث في مكوناته ومحافله الأساسية التي تتداول هذا المحكي، فإن الأمر استدعى أكثر من نظرية لسانية في سبيل تحقيق ذلك، وإذا كانت البنية السردية في شكلها العام تقتضي توفر ثلاثة عناصر أساسية مكونة لها هي السارد والمسرود والمسرود له، فإن السرديات بعودتها إلى نظرية التواصل حددت العلاقة الماثلة بين طرفي الخطاب أي بين السارد والمسرود له، واستطاعت كذلك تحديد المستويات التواصلية الثلاث التي تتداول العمل السردية: الحقيقي والإفتراضي والتخييلي من خلال -أيضا- نظرية التلفظ وتحديد علاقة السارد بمحكيه وتحديد زمن الخطاب وزمن القصة والمستويات السردية ... ، وتكفي الإشارة هنا إلى جيران جينات في واحد من أهم مؤلفاته "خطاب الحكاية" إذ إن تصوراتها الماثلة في هذا الفصل قائمة أساسا على أطر لسانية سواء فيما يخص زمن المحكي أو صيغته أو الصوت، وبخاصة الصوت والإشكاليات التي حامت حوله فيما يخص المحافل السردية الثلاث: المؤلف والسارد والشخصية، والتباس الأول بالثاني وتحول الثاني في هيئة الثالث ** .

لم تكن العودة إلى اللسانيات عودة اعتباطية أو فقط لأن المحكي خطاب مواز للكلام من حيث لغويته بل كانت لها أبعادها وقيمتها في الكشف عن الدلالات العميقة للمحكي من خلال هذه اللغوي، واستطاعت السرديات بواسطتها إحداث نقلة نوعية عن النقد الكلاسيكي الذي اقتصر على دراسته للرواية تحديدا على أنها تصوير للواقع ونقل لقيم وأخلاقيات اجتماعية، إلى بعد آخر يدرس النص من حيث هو بنية مستقلة في ظل مقولة "موت المؤلف"، وحتى عن الدراسات الشكلائية الروسية رغم كونها الخطوة الأولى في قراءة المحكيات بوصفها خطابات، إذ إن التعديلات التي تعرضت لها هذه الدراسات في سبيل إقامة صرح للسرديات كانت انطلاقا من خلفيات لسانية .

الهوامش:

¹ voir , F. de Saussure , cours de linguistique générales , ed , ENAG , Alger , 1987 , pages déférentes .

² Voir , R . Jakobson, Essais de linguistique générale, édition de minuit, France , 1973 , p 213 , 214 .

³ Ibid , p 214

⁴ ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري ، إستراتيجيات الخطاب ،، مقارنة لغوية تداولية ، دار الكتاب الجديد ، لبنان ، 2004 ، ص 13 ، و قد تحدث روبل عن هذا في مؤلفه "وظائف اللغة ٠".

⁵ المرجع السابق ، ص 13 .

⁶ Voir , Katherine kerbrart Orecchionni , l'énonciation de la subjectivité dans le langage , Armand

Collin , France , 1988 , p13 , 14

⁷ voir : l'énonciation de la subjectivité , p 1817 , .

⁸ ينظر، كاترين فوك ، بارلي قوفيك ، مبادئ في قضايا اللسانيات المعاصرة ، تر منصف عاشور ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1984 ، ص 137 و ما بعدها .

⁹ ينظر : جاب لتفنت ، مقتضيات النص السردي ، تر رشيد بن حدو ، ضمن طرائق تحليل السرد الأدبي ، منشورات اتحاد كتاب المغرب ، الرباط ، 1992 ، ص 86 ، و قد تحدث كونتز عن هذا في مقال "parole/ discours" (الكلام/ الخطاب) ع 15 من مجلة "langue française" 1972 .

¹⁰ المرجع نفسه، ص 86 ، و قد تحدث آدم عن هذا في مؤلفه اللسانيات و الخطاب الأدبي "linguistique et le discours littéraire" ، Paris ، 1976 .

¹¹ Voir , l'énonciation de la subjectivité , p 18

¹² ينظر : عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب ، م س ، ص 21 .

¹³ المرجع السابق ، ص 22 ، 23 .

¹⁴ ينظر : قاسم المقداد ، هندسة المعنى في السرد الأسطوري الملحمي ، جلجامش ، دار السؤال ، دمشق ، ط 1 ، 1984 ، ص 99 .

¹⁵ ينظر: عبد الله إبراهيم ، السردية العربية ، بحث في البنية السردية العربية للموروث ، المركز الثقافي العربي بيروت ، 1992 ، ص 24 .

¹⁶ المرجع السابق ، ص 24 .

¹⁷ ينظر ، آن بنفيلد ، الأسلوب السردى و نحو الخطاب المباشر و غير المباشر ، تر بشير قمري ، ضمن طرائق تحليل السرد الأدبي ، م س ، ص 123 .

¹⁸ R. Barthes, introduction à l'analyse structurale des récits , in poétique du récit , édition du seuil ,

1977 , p 39

¹⁹ Voir , F.Marchnd et autres , les analyses de la langues , ed seuil , 1970 , p 28 نقلا عن ، كورات الجيلالي ، الحامل

البيداغوجي ، كلية الآداب و العلوم الإنسانية ، جامعة سيدي بلعباس ، 200 ، ص 38 ، 39 .

²⁰ المرجع نفسه ، ص 47 .

²¹ ينظر ، سعيد يقطين ، تحليل الخطاب الروائي ، الزمن ، السرد التبيين ، المركز الثقافي العربي ، ط 4 ، 2005 ، ص 54 .

²² E.Benveniste .problème de linguistique générale. T1 .édition Cérés .Tunis . 1995. P 241.

²³ Ibid m p 247 .

* و المقال متضمن في المرجع السابق .

²⁴ Ibid m p 248 .

²⁵ ينظر ، ميخائيل باختين ، شعرية دوستوففسكي ، تر نصيف التكريتي ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، دت ، ص 94 .

²⁶ المرجع نفسه ، ص 95 ، 96 .

²⁷ عالية محمود صالح ، البناء السردى في روايات الياس خوري ، دار أزمنة ، عمان ، الأردن ، ط 1 ، 2005 ، ص 211 ، 212 .

** voir , G.Genette , figures 3 , essai de méthodes , Cérés , Tunis , 1984 .